بسم الله الرحمن الرحيم

# وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ

**بقلم؛ سيف الدين الانصاري**

سبقت الإشارة إلى أن الله قد جعل إهلاك الكافرين من بين الحِكَم المبثوثة في سنة المداولة، قال تعالى: {وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:141]، وأن هذه الحكمة قد صارت - وفق قانون التلازم - سنة من السنن التي تضبط حركة الحياة، وخاصة جانب الصراع منها.

ويكثر في القرآن الكريم الحديث عن هذه السنة، بل إنه ليصل إلى الحد الذي يشعرك أنك أمام حقيقة ذات أهمية بالغة، فيعرض الأمثلة، ويعدد الصور، وينوع المشاهد، ويعيد الأحداث، وفي كل مرة تجده يلفت نظرك إلى أنه رغم اختلاف الأشخاص والوجوه بين هذه الأمثلة، ورغم اختلاف الزمان والمكان بين هذه الأحداث، فإن هناك شيئا واحدا يجمعها وخيطا واحدا ينظمها هو سنة الله التي قضت بـ{وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:141].

ويحرص القرآن على إبراز هذه السنة من خلال تناوله لحركة الأنبياء في صراعهم مع القوى الكافرة، وكيف أن النهاية كانت دائما بإهلاكها، فيقول في قوم نوح: {وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} [المؤمنون: 27]، وفي "عاد" قوم هود: {وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ} [الأعراف:72]، وفي "ثمود" قوم صالح: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [هود:68]، وفي قوم لوط: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف:84]، وفي "مدين" قوم شعيب: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف:91]، وفي فرعون: {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف: 137].

وهكذا يعرض القرآن مصارع القوى الكافرة على امتداد التاريخ، فمنهم من أغرق في لجة الطوفان الغامر، ومنهم من أخذ بالعاصفة المدمرة، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خُسفت به وبداره الأرض، ومنهم من دمرت بناياته ومؤسساته، ومنهم غير ذلك، مما لا يعلمه على وجه التحديد إلا الله. وبعض هذه المصارع لاتزال آثارها شاهدة كبقايا "عاد" و"ثمود"، وبعضها انطمست

آثارها لأنها أخذت الضربة القاسية فكانت كالزرع المحصود كما هو الحال في شأن قوم نوح وقوم لوط، قال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} [هود:100].

وما هذه الأحداث إلاّ لقطات من قصة الصراع الممتد امتداد الحياة البشرية، وما هذه المشاهد إلاّ بعض من الصور التي تتجسد فيها سنة الإهلاك التي تطال القوى الكافرة على امتداد التاريخ، وما ينبغي أن تنحصر أذهاننا في هذه الصور التي نص عليها القرآن، فإنها مجرد أمثلة تستهدف تقرير السنة وتعميقها في وعي القارئ، لتصبح حاضرة بشكل يساعد على امتلاك أدوات القراءة الصحيحة لحركة الحياة.

وعندما نقول إن إهلاك القوى الكافرة سنة قدرية فإن هذا يعني أنها قانون ثابت، وقاعدة مطردة، لا تتبدل بتبدل الزمان والمكان، ولا تتغير بتغير الأشخاص والوجوه، بل هي ماضية على امتداد الزمان والمكان، وقائمة رغم اختلاف الأشخاص والوجوه، وكما وجدت في زمن نوح وهود فإنها موجودة في زمننا هذا، وسوف تكون موجودة في المستقبل، وإذا كانت عجلة التاريخ تتحرك والإشخاص تتغير والمعطيات الجزئية تتبدل، فإن سنة الله هي هي، قائمة ماضية لا تتبدل ولا تتغير {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} [الفتح:23].

فإهلاك القوى الكافرة - إذن - حقيقة من حقائق الحياة، وسنة من سننها، خلافا لما قد يظنه البعض من أنها ليست إلاّ فكرة "غيبية" تستمد وجودها من نظرة "مثالية" لا تستند إلى دليل الواقع، فإن عليها من الأدلة الميدانية في عالم المشاهدة ما لا يدع مجالا للشك أو الجدال..

وهذه شواهد التاريخ مبثوتة أمام الجميع، والقرآن يدعو بصراحة إلى قراءتها والتأمل فيها، {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْل} [الروم: 42].

وكما انطبقت سنة الإهلاك على القوى الكافرة من الأمم السابقة ولم يفلت منها أحد، فإنها سوف تنطبق على القوى الكافرة في واقعنا المعاصر ولن يفلت منها أحد، أي أنه كما أهلكت دولة "ثمود" ودولة "عاد" ودولة "مدين" وغيرها، سوف تُهلك - ولاشك - دولة أمريكا ودولة اليهود،

بل وكل الدول الكافرة ومعها كل فراعنة الزمان وطواغيت العصر، مهما أتيحت لهم من أسباب القوة ومقومات القدرة.. لأنها السنن، تجري على الجميع، وتطبق على الكل، وليس هناك مجال للمعايير المزدوجة، قال تعالى: {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} [القمر:43]!!

ويظهر من خلال النصوص التي عالجت الموضوع أن العلة الأساسية لجريان سنة الله بإهلاك القوى الكافرة هي تلبسهم بذنب الكفر، قال تعالى: {ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [فاطر:26]، إذ من المعلوم أن العلاقة بين ذنب الكفر وسنة إهلاك القوى الكافرة تندرج تحت الحقيقة الكبيرة التي تعد ركيزة في التصور الإسلامي، وهي حقيقة التلازم بين العمل والجزاء، وأن سوء الأعمال يقابله سوء المآل، قال تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ} [العنكبوت: 40]، وهو تعبير يتكرر كثيرا في القرآن الكريم، والظاهر أنه يتكرر ليقرر حقيقة كبيرة مفادها أن الذنوب تهلك أصحابها، وأن الإهلاك حالة تصير إليها الأمم حين يستقر شأنها على مخالفة الأمر الشرعي، لأن هذه المخالفة إضافة إلى أنها معصية فإنها توجد حالة من عدم الانسجام مع السنن القدرية التي تحكم حركة الحياة، وهكذا يكون فعل الذنوب في هدم "الحضارات".

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الإهلاك إما أن يتحقق في شكل السقوط السريع الذي يأتي على إثر الضربة القاضية، فتكون عملية الانهيار مرة واحدة، مما يجعلها ظاهرة للجميع بحيث لا يحتاج الوقوف عليها لا إلى مراقبين ولا إلى محللين. وإما أن يتحقق في شكل السقوط التدريجي الذي يأتي عن طريق انحلال بطيء ينخر في الجسم بطريقة متأنية، ولكنها فعالة، تنشئ بفعل التراكم حالة تؤدي في النهاية إلى الانهيار.

وعموما فإنه في كلتا الحالتين - السقوط السريع والتدريجي - إما أن يكون بفعل الله مباشرة، فيقع في شكل أمر قدري من عنده، وإما أن يكون بفعل الجماعة المسلمة فتكون استجابتها للأمر الشرعي ستارا لتحقيق السنة القدرية، قال تعالى: {وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} [التوبة:52].

نعم قد تعمّر دولة الكفر عقودا من الزمن، أو ربما قرونا، وقد تصول خلال هذه الفترة وتجول، بل وقد تعربد

وتتغطرس، ولكن الأكيد هو أن هذه الفترة لن تدوم إلى الأبد ولن تستمر إلى يوم القيامة، بل لن تستمر طويلا، لأنها وضع مؤقت، ويوم النهاية آت لا محالة، وإذا لم يكتب للفرد أن يراه بعينه في عمره القصير فإن عدم الرؤية لا يلزم عنه عدم الوجود، والسنن لا تفهم من خلال الإطار المحدود.

على أن هذا الوضع المؤقت يرجع إلى أسباب تدخل ضمن نظام السنن ولا تخرج عنه، أي أنه ليس فلتة عابرة، ولا جزافا لا ضابط له، كلا، إنه وضع ترجع أسبابه إلى مجموعة من العوامل الذاتية أو الموضوعية أو ربما إلى كليهما معا.. ولكن المهم عندنا أنه ليس حالة دائمة، وإنما هو وضع مؤقت، يمهل به الله تلك الدولة الكافرة لفترة من الزمن، ولحكمة من الحكم، ثم بعد ذلك يكون المصير المحتوم {فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ} [الحج:44].

إن عوامل الضعف عند القوى الكافرة كامنة في حقيقة وجودها، ومبثوتة في ثنايا القيم التي تحملها وتدعو إليها، فوجودها هو تجسيد لوجود الباطل، وقيمها هي تمثيل لقيم الباطل، {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ} [محمد:3]، والباطل لا يمتلك من مقومات الدوام شيئا، ولا حتى من مقومات الاستمرار الطويل، بل إنه يحمل في طبيعته أسباب الاضمحلال وعوامل الزوال، {إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً} [الاسراء:81].

يجب أن نؤمن أن كل دولة كافرة زائلة لا محالة، بلا تردد، ولا تحرج، وإذا لم يكن هلاكها على يد الجماعة المسلمة - لظرف ذاتي أو موضوعي مؤقت - فإن سنة الإهلاك سوف تتحقق بإزلة الدولة الكافرة بدولة كافرة، ربما لأن الثانية أقل منها فسادا أو ربما لأنها أكثر قدرة أو ربما لسبب آخر، لا يهم الآن.. فالذي يهمنا هنا هو تقرير أنه لا دوام للدولة الكافرة، ولا يستثنى من هذه القاعدة دولة من دول الكفر ولو كانت ممن تسمى بالدول العظمى.

وتكفي غزوة نيويورك وواشنطن نموذجا على سقوط الاقتدار الموهوم، فقد تهاوت مع طبقات برجي التجارة وأسوار مقر وزارة الحرب معالم القوة، وذهبت رموز الخلود، وظهر الحجم الحقيقي للباطل، وأنه أصغر مما يظن الناس، وأضعف مما يتوهمون، وأن دولة الكفر مهما امتلكت من مقومات القدرة ومهما استجمعت من عوامل القوة فإنها لا تقوم لكي تبقى، ولكنها حتما ستزول!!

ويحرص القرآن على لفت الانتباه إلى هذا المصير الذي تؤول إليه القوى الكافرة على امتداد الحياة، ويركز على ضرورة إعمال النظر في حقيقة هذه السنة وفي دلالالتها، وفي أبعادها كذلك، فتجده يقول مباشرة بعد عرض مشهد الإهلاك: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف:84]، وهو توجيه يتكرر في القرآن بصيغ متعددة، ولكنها ذات معنى إجمالي واحد، يهدف أساسا إلى استثارة الوعي بسنة الله في إهلاك دولة الكفر، وإلى ملاحظة القوة الفاعلة في الوجود، وأنها - في حقيقة الأمر - قوة الله لا قوة أحد من خلقه.

**ومن شأن هذه الحقيقة عندما تستقر في الداخل الفكري والنفسي للمؤمنين أن تحدث عندهم على الأقل ثلاثة أمور:**

**أولها:** أن توجد عندهم حالة من الميل الشديد إلى العمل على تغيير هذه الدول مهما كانت قوتها، والسعي الحثيث لإزالتها، لأن السنة القاضية بمحق الكافرين تفتح أمامهم نوافذ واسعة من الأمل المبني على اليقين بحتمية إهلاك العدو، وهو ما يعني امتلاك إرادة قوية تحمل طابع التحدي وتسير في اتجاه صناعة القوة عوض الاستسلام، منطلقين في ذلك من الإيمان بما تحمله الحياة من متغيرات على مستوى موازين القوى، بحيث قد يصير القوي ضعيفا، كما قد يصير الضعيف قويا، فلا تحد من عزائمهم الأوضاع القلقة، ولا يقع الانهيار عند لحظة الهزيمة المؤقتة.

**وثانيها:** أن تدفعهم إلى اعتماد منهج التغيير الجدري، وهو المنهج الذي يستهدف إزالة دولة الكفر، باعتبار أن هذه الإزالة هي النتيجة المنسجمة انسجاما كاملا مع السنة القدرية القاضية بإهلاك القوى الكافرة، وهو ما يعني - في المقابل - البعد عن الوقوع في شَرَك النظرة المستغرقة في الانبهار بمظاهر قوة الغير، لأنها تؤدي إلى حالة من الاستسلام للأمر الواقع غالبا ما يغلفها أصحابها بدعوى الواقعية، مما يحدو بهم إلى استبعاد المنهج

التغييري الذي يستهدف إقصاء دولة الكفر، ويستبدلونه بالنظرية التي تهدف إلى التغيير "الجزئي" الذي لا يتحرك إلاّ من خلال المعادلة القائمة، ولا يناور إلاّ من داخل الهامش المسموح به من طرف العدو!!

**وثالثها:** أن تربطهم - ربطا حيا - بالله، من خلال استشعار طلاقة القدرة التي لا يعجزها شيء، وهو ما يعني على المستوى العملي التحرك المدروس ولكن من خلال الاستناد إلى الله الذي يملك القوة المطلقة، بحيث ينطلقون من حالة الاستعلاء عن المنطق الشيطاني الذي يعمل على التخويف بالآخرين، أي أن قوة الأعداء تتحول في نظر المؤمنين إلى لون من ألوان الضعف لا يمكن أن تملك الثبات أمام قوة الله. وهذه النقطة رغم بداهتها إلاّ أنها أصبحت باهتة في فكر ووجدان الكثير من المسلمين، خاصة أولئك "الأذكياء" الذين يعرفون عن قوة أمريكا أكثر مما يعرفون عن قوة الله!!

إن عاقبة القوى الكافرة من الحقائق الكبيرة التي يحرص القرآن على غرس معانيها في القلوب وتعميق دلالاتها في الضمائر، وما كان هذا الموضوع ليأخذ مثل هذا الحجم في كتاب الله لولا أهميته في تشكيل الرؤية الإسلامية للحياة بصفة عامة وللصراع بصفة خاصة، وهذا - بالضبط - ما يجعلنا نحذر من تلك الدعوات التي تسعى إلى إغفال - أو ربما إلغاء - هذه الحقيقة على مستوى الوعي والممارسة، فيما يبدو أنه محاولة مشبوهة لتمييع القضايا الإيمانية من خلال التجاهل المقصود.

**بقلم؛ سيف الدين الأنصاري**
**عن مجلة الأنصار**

**تم تنـزيل هذه المادة من منبر التوحيد والجهاد**

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info